رسالة النكت في إعجاز القرآن
دراسة ونقد

د. عماد طه أحمد الراعوش(*)

(*) أستاذ مساعد بقسم القرآن الكريم – كلية أصول الدين – جامعة الإمام محمد بن سعود – المملكة العربية السعودية.

ملخص البحث:

من العلماء الذين برعوا في اللغة والبلاغة: الرُّماني، كتب في إعجاز القرآن الكريم، لكنه لم يكتب كتاباً وافياً مستقلاً، وما وصلنا من نظريته في إعجاز القرآن الكريم رسالة تسمى: النكت في إعجاز القرآن الكريم، تحدث فيها عن إعجاز القرآن الكريم من خلال بيان نكت البيان في القرآن، بمعنى بيان اللطائف والأسرار الخفية التي تدرك بالفطنة وحسن التأمل، ورسالته هذه نموذج لنظرية الإعجاز عند المعتزلة، فهو من شيوخ المعتزلة وعلمائها الصناديد، وعنه أخذ كثير ممن لحقه من العلماء والتلاميذ، في تعريف البلاغة والبيان وطبقات البلاغة وأقسام البلاغة، كما سأبين في البحث.

ذكر الرُّماني سبعة وجوه لإعجاز القرآن الكريم هي: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة.

ثم شرع في بيان الوجه الرابع وهو البلاغة، واستغرق معظم رسالته في ذلك، ثم عاد في صفحاتها الأخيرة إلى بيان باقي الوجوه بإيجاز، غير أن الوجه الرئيس الذي اعتمده الرُّماني هو البلاغة، وهذا ظاهر في استطراده في إثباته ومناقشته والتمثيل عليه، وهو واسطة عقد الرسالة، أو قل: هو الرسالة والرسالة هو، وغيره ليس بشيء.

مما تحمد به رسالة الرُّماني في الإعجاز: أنه أصَّل للإعجاز البلاغي تأصيلاً فريداً يكاد يكون نواة التأليف في هذا المضمار، وأورد اعتراضات قد ترد على الإعجاز القرآني، وردها ببراعة فائقة، وبأدلة حبكت وأحكمت شكلاً ومضموناً.

ويؤخذ على الرُّماني: أنه اعتمد ثلاثة أوجه للإعجاز هي في الواقع ليست من جوه الإعجاز عند جُلِّ العلماء أو كلهم فيما اطلعت، وإن كان ما يتعلق بها من إعجاز إنما يرجع إلى وجه البلاغة.

وهذه الوجوه هي: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة،

والتحدي للكافة، ونقض العادة، كما أنه ذكر القياس بكل معجزة، وهذا كذلك لا يصلح أن يكون وجهاً للإعجاز.

وعليه يبقي من وجوه الإعجاز المعتمدة عن الرُّماني ثلاثة هي: البلاغة، والإخبار الصادق عن المستقبل، والصرفة. أما القول بالصرفة فمردود، وبذا لا يبقى عندنا مما اعتمده إلا وجهان فقط.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد شاء الله أن يكون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل، ورسالته خاتمة الرسالات، وشاء عز وجل أن تكون الرسالة – وهي القرآن الكريم – هي ذاتها الدليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وبما أن الرسالة عامة للناس باقية ما بقوا، كان اللازم أن تكون المعجزة كذلك باقية ما بقي الناس. ليبقى هذا الدليل قائماً أمامهم ساطعاً سطوع الشمس ما بقيت الشمس وما بقى الناس.

وعليه كان القرآن الكريم الرسالة الباقية والمعجزة القائمة، أو قل – مجازاً – الخالدة، به تحدى الله سبحانه وتعالى الأنس والجن وإن تظاهروا على الإتيان بمثله أو ببعض منه، فلا جاؤوا بمثله ولا ببعضه، مع أنه كلام عربي، ذلك حير الأعداء والأصدقاء، حاروا في إعجازه وخرقه للعادة، وذهبوا مذاهب شتى في بيان وجه أو وجوه إعجازه، فمنهم: قائل: معجز ببيانه، ومنهم: قائل: بأخباره الصادقة، ومنهم: قائل: بتشريعاته، ومنهم: قائل: بكل ذلك وغير ذلك. ومنهم قائل: ليس بذلك ولا من ذلك، بل الخرق للعادة صرف الناس عن معارضه.

كتب السلف والخلف في إعجاز القرآن الكريم كتباً كثيرة، ومنهم: الرُّماني: علي بن عبد الله أبو الحسن الإخشيدي الوراق الرُّماني المعتزلي، كتب رسالة سماها (النكت في إعجاز القرآن الكريم)، ورغبت أن أبحث في مذهب هذا الرجل في الإعجاز؛ لأنه من أوائل من ألفوا في الإعجاز البلاغي وأسهموا في التأصيل له؛ لذا كان مرجعاً لمن ألفوا في هذا العلم. وكثير ممن كتب بعده نقل عنه ونسب إليه، أو استوعب نظريته وطورها وأضاف عليها، والآخذون عن الرُّماني كثر، وبعضهم يأخذ عن بعض، ولعل أصل بعضه مما كتبه الرُّماني، فقد أخذوا عنه ونسبوا له أحياناً، ولم ينسبوا أحياناً أخرى في أبواب، منها: تعريف البلاغة والبيان، وطبقات البلاغة، وأقسام البلاغة، كما سأبين في البحث.

وحرصت أن أنظر فيها نظرة موضوعية فاحصة ناقدة، وكان سبيلي إلى ذلك – بشكل رئيس – هذه الرسالة، وبجانبها لأجل المقارنة ما كتب حولها في كتب الإعجاز القديمة والحديثة، كذلك ما تيسر لي مما كتب في وجوه الإعجاز، ليتسنى لي فهم ما ذهب إليه هذا الإمام في نظريته في الإعجاز، محاولاً نقدها نقداً موضوعياً إيجاباً وسلباً وتحليلها والاستنباط منها.

أهمية البحث

الرُّماني من العلماء المتمكنين باللغة والبلاغة، فاق أقرانه في هذين العلمين، وكانت نظريته في الإعجاز جزءاً من الأصول التي صاغها هو وأمثاله من المتقدمين الذين ألفوا في هذا الموضوع، مثل النَّظام، والجاحظ، وابن قتيبة، والخطَّابي، والباقلاني، وكانت مقدمة من المقدمات التي صاغت أصول علم الإعجاز في القرآن الكريم.

لما كتب الرُّماني في إعجاز القرآن أهمية خاصة لسببين:

الأول: أن علم الرجل مكنه من طرح أفكار جدلية هامة فيها – من وجهة نظري – الحق وفيها غير ذلك، ولا بد من دراستها للتمييز بينهما، مع العلم أن رسالة الرُّماني في الإعجاز تكاد تخلو من القضايا المذهبية الخاصة، لكونها تتحدث في معظمها عن البلاغة وفروعها من جهة كونها وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، وهي قضايا تكاد لا تجد قيها خلافات مذهبية.

كما أن لمثل هذه الدراسات النقدية أهمية علمية خاصة؛ لكونها تميز الغث والسمين، وتهيئ الطيب لطلاب العلم بصورة مهذبة لا يشوبها انحراف أو بدعة أو أي شائبة، وتكشف الخبيث وترده وتحذر منه وتميط عنه لثام التعصب المذهبي وسعار الانتصار للرأي المنحرف، فلا تنطلي خدعة المذهبية والتعصب المقيت على طلاب العلم، وبخاصة المبتدئين منهم. ومثل ذلك فعل ابن المنيّر في حاشيته على تفسير الكشاف للزمخشري، ولولا ذلك لاختلط الحابل بالنابل، ولضاع ما فيه من وقفات بيانية وبلاغيه تكشف عن إعجاز القرآن بين ما فيه من انحراف وتعصب مذهبي ظاهر مقيت، وليس من البحث العلمي الموضوعي

والمتجرد تصنيف العلماء ونتاجاتهم العلمية إلى منحرف وملتزم، ومن ثم القبول المطلق للأول والرد المطبق للثاني، ذلك لا ينبغي؛ لأن كلاً يؤخذ منه ويرد إلا النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم.

والأهم من ذلك: أن الكتب جميعاً – الملتزمة منها والمنحرفة على رأي من صنف هذا التصنيف – أصبحت في متناول طلاب العلم في المكتبات الإلكترونية وعلى شبكة الإنترنت، يصلون إليها بيسر ما سبق له في التاريخ مثيل حتى إنك تستطيع أن تحمل في جيبك أو في حاسبك عشرات الآلاف من الكتب مما تنوء بحمله الرواحل وتضيق عن استيعابه المكتبات، ويقفون من ذلك على ما شاءوا من المؤلفات، وقد يسوقهم لين عودهم وقلة خبرتهم ودربتهم مع شغفهم ورغبتهم في طلب العلم إلى كم كبير من المعلومات التي فيها ما فيها، ويحطبون منها حطب ليل، فيحملون بدافع الرغبة والاستزادة ما ينفعهم وقد يحملون معه ما يضرهم، فتتولد عندئذ الأفكار الشاذة، وتنشأ منها المذاهب المتطرفة التي تؤذي أول ما تؤذي أصحابها ومن حولهم، وفي هذه الحالة أصبح من الواجب على أهل العلم حرصا على طلابهم بل على عامة الناس أن يحققوا ما استطاعوا من النتاجات الفكرية المشبوهة، ويدرسوها دراسة نقدية علمية موضوعية جادة، وإلا نخشى على هؤلاء من أن يقفوا على مثل هذه الكتب ويأخذوا منها غثها وسمينها، وعندها ستكون مهمة تصحيح الأفكار التي استقرت أمراً أصعب من ذي قبل.

خطة البحث

التمهيد وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: التعريف بالرماني

المبحث الثاني: التعرف بالإعجاز والمعجزة

المطلب الأول: في اللغة

المطلب الثاني: في الاصطلاح

المطلب الثالث: وجوه الإعجاز عند الرماني

المبحث الرابع: مراحل التحدي

الفصل الأول: إعجاز القرآن الكريم البلاغي عند الرُّماني وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: تعريف البلاغة

المبحث الثاني: طبقات البلاغة

المبحث الثالث: أقسام البلاغة وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: الإيجاز

المطلب الثاني: التشبيه

المطلب الثالث: الاستعارة

المطلب الرابع: التلاؤم

المطلب الخامس: الفواصل

المطلب السادس: التجانس

المطلب السابع: التصريف

المطلب الثامن: التضمين

المطلب التاسع: المبالغة

المطلب العاشر: البيان

الفصل الثاني: بيان باقي وجوه الإعجاز، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة.

المبحث الثاني: التحدي للكافة

المبحث الثالث: نقض العادة

المبحث الرابع: قياسه بكل معجزة.

المبحث الخامس: الأخبار الصادقة عن المستقبل.

المبحث السادس: الصَّرفة.

المبحث السابع: اعتراضات على الإعجاز وردها

التمهيد

المبحث الأول
التعريف بالرُّماني(١)

هو علي بن عبد الله أبو الحسن الإخشيدي الوراق الرُّماني، نسبة إلى الرّمّان الموجود بواسط، والإخشيدي نسبة إلى الإخشيد وهو أستاذه المعتزلي، لقب بالوراق لأنه كان يمارس أعمال الوراقة التي كانت شائعة في عصره.

ولد سنة ست وتسعين ومائتين (٢٩٦) للهجرة ببغداد، وقيل: سامر، واشتغل بطلب العلم عند شيوخ، منهم أبو بكر بن دريد، وأبو بكر السراج، والزجاج، وشيخ أشياخه الإخشيدي المتكلم المعتزلي، ومما يدل على ذلك: أنه لقب بالإخشيدي.

برع في علوم عدة، منها: النحو وقد لقب بالنحوي، والمنطق، والفلسفة وعلوم القرآن، والحديث، والفقه. من آثاره العلمية: تفسير للقرآن لم يصل منه إلا أجزاء نقلها عنه العلماء، ورسالته النكت في إعجاز القرآن، والجامع في علوم القرآن، وشرح معاني القرآن للزجاجي. وأكثر مؤلفاته في النحو، واشهرها شرح كتابي المدخل والمقتضب للمبرد، وشرح الكتاب لسيبويه، وكتاب الإيجاز في النحو، وكتاب التصريف، وغيرها من الكتب، توفي رحمه الله سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (٣٨٤) للهجرة.

هذا ولم يكتب الرُّماني كتاباً في الإعجاز وافياً، وما وصلنا من رأيه في إعجاز القرآن الكريم رسالة تسمى "النكت في إعجاز القرآن الكريم"، بدأها على شكل سؤال قال فيه: "سَأَلْتَ وفقك الله عن ذكر النكت في إعجاز القرآن الكريم

---

(١) ينظر في ترجمته، شذرات الذهب ٣/ ١٠٩، وتاريخ بغداد ١١/ ١٦. والأعلام، للزركلي، ٤/٣١٧.

دون التطويل بالحجاج، وأنا اجتهد في بلوغ محبتك، والله الموفق للصواب بمنه ورحمته"[١]. ثم شرع في بيان وجوه الإعجاز كما سنوضح لاحقا إًن شاء الله.

من هذا الافتتاح يظهر أن الرُّماني تحدث عن إعجاز القرآن الكريم من خلال بيان النكت في إعجاز القرآن، بمعنى بيان اللطائف والأسرار الخفية التي تدرك بالفطنة وحسن التأمل. وعليه فإن أثره هذا في موضوع الإعجاز ليس كتاباً مرتباً بالطريقة المنهجية المعروفة بل هو إشارات نستطيع من خلالها استنباط رأيه في الإعجاز بشكل مجمل.

المبحث الثاني
التعرف بالإعجاز والمعجزة

المطلب الأول
فـي اللغة

الإعجاز والمعجزة مأخوذان من (عجز) وأصل يدل على معنيين: الضعف ومؤخر الشيء[٢]. ويرى الراغب أن العجز في أصله يدل على التأخر عن الشيء، ثم صار في العرف اسماً للقصور عن فعل الشيء[٣]. وعليه فالراغب يرى أن دلالة لفظ العجز على القصور والضعف ليست أصلية بل مجازية، والعلاقة بين المعنى المجازي وهو القصور والمعنى الأصلي وهو التأخر: التلازم، إذ التأخر والقصور متلازمان لأن العجز إنما يرجع إلى التأخر عن القدرة على فعل الشيء.

---

(١) كتاب النكت في إعجاز القرآن الكريم، للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ص ٧٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (٣٩٥)، مادة عجز، ص ٧١٢

(٣) الراغب، المفردات، ص ٣٢٥.

المطلب الثاني
في الاصطلاح

المعجزة: "أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة"[١]. يجريه الله على يد مدعي الرسالة ليكون دليلاً على صدقه. ولكن التعجيز المذكور ليس مقصوداً لذاته. بل المقصود لازمه. وهو إظهار أن المعجزة من عند الله أجراها على يد مدعي الرسالة دليلا على صدقه.

أما إعجاز القرآن الكريم فالمقصود منه: إثبات عجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن،[٢] قال القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ): "معنى قولنا في القرآن أنه معجز: أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختص به"[٣]. والمقصود من هذا الإعجاز: إثبات لازمه. وهو كون القرآن من عند الله، والمقصود بعد ذلك لازم ذلك وهو إثبات نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثالث
وجوه الإعجاز عند الرماني

يبدأ الرُّماني رسالته "النكت في إعجاز القرآن الكريم" بالإجابة على السؤال الذي افتتح الرسالة به مبيناً وجود الإعجاز وهي عنده سبعة وجوه هي:[٤] ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، التحدي للكافة، الصرفة، البلاغة، الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، نقض العادة، وأخيراً قياسه بكل معجزة.

وهذا الذي ذكره الرُّماني ليس محل اتفاق، والذي اتفق عليه المسلمون

---

(١) سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، ٣/ ٢٧٣.
(٢) الباقلاني، إعجاز القرآن،ص٢٨٨. والزرقاني، مناهل العرفان، ٢/ ٣٣١.
(٣) القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب العدل والتوحيد، ١٦/ ٢٢٦.
(٤) النكت في إعجاز القرآن الكريم، الرُّماني، ص ٧٥.

قاطبة هو أن القرآن معجز، وأن إعجازه باق إلى يوم الدين، لكن بعد ذلك راح كل واحد منهم يبحث عن سر إعجازه، وعن الصفة التي جعلته عصياً على معارضة الإنس والجن منذ أن نزل إلى يومنا هذا ثم إلى يوم الدين، وكان لكل منهم في ذلك مذهب. فمن قائل: إن إعجازه في أسلوبه، وقائل: في نظمه، وقائل: في تأثيره على السامع، وقائل: فيما فيه من أخبار الغيب، وقائل: فيما فيه من علوم وحكمة وغير ذلك، حتى إن قائلا منهم قال: إن وجه إعجازه في الصرف عن معارضته، ومن هؤلاء: من قصر الإعجاز على وجه واحد، ومنهم: من زاد على ذلك، حتى إن السيوطي أوصلها إلى خمسة وثلاثين وجهاً، ونقل أن بعضهم أوصلها إلى ثمانين وجها(١).

المبحث الرابع
مراحل التحدي

أثناء حديثه عن إعجاز القرآن ببلاغته وبالتحديد بعد حديثه عن التلاؤم ذكر الرُّماني آيات التحدي بمعارضة القرآن مرتبة على النحو التالي:(٢)

١ - قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣).

٢ - ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤) فقطع بأنهم لن يفعلوا.

٣ - ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨).

٤ - ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ (الطور:٣٤) ولما تعللوا بالعلم بالمعاني التي فيه قال:

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ص ٣.

(٢) النكت، ص ٩٧.

٥ - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (هود:١٣)

لكني لا أوافق الرُّماني في ترتيبه لآيات التحدي على هذا النحو إن كان يقصده فعلاً، بل ما استقر عليه العلماء هو أن التحدي وقع أولا بالقرآن كله، ثم بعشر سور، ثم بسورة مثله، ثم بحديث من مثله، ثم كان الجزم بأن الإنس والجن عاجزون عن المعارضة وإن اجتمعوا. وإن اعترض على هذا القول بأن ترتيب النزول لا يؤيده، يقال: إن ترتيب النزول الذي يعتمده بعض العلماء هو ذاته يحتاج إلى دليل ناهض يؤيده، وليس هنالك إلا روايات ضعيفة لا يطمأن لها، ولا يصلح الترتيب المدعى بهذه الروايات الضعيفة لأن يؤيد قولا أو يرد آخر.

الفصل الأول
إعجاز القرآن الكريم البلاغي عند الرُّماني

تمهيد:

بعد أن ذكر الرُّماني وجوه إعجاز القرآن شرع في بيان الوجه الرابع وهو البلاغة، واستغرق معظم رسالته في ذلك، ثم عاد في صفحاتها الأخيرة إلى بيان باقي الوجوه بإيجاز.

غير أني رأيت في مناقشة الوجوه هذه أن أسلك ترتيباً غير الذي سار عليه، وسأبدأ بالوجه الرابع ثم أعود إلى باقي الوجوه لسببين:

الأول: أن هذا الوجه استغرق عند الرُّماني معظم الرسالة، وهذا يشير إلى أنه الوجه الرئيس عنده، أما باقي الوجوه فقد ذكرها بإيجاز في آخر صفحات الرسالة.

الثاني: أني رأيت أن معظم ما ذكره من وجوه عائد إلى هذا الوجه، وحتى أبين ذلك لا بد من بيان هذا الوجه ثم بيان علاقة باقي الوجوه به.

المبحث الأول
تعريف الرُّماني للبلاغة

بيَّن الرُّماني المقصود من البلاغة وفيما تكون، فذكر ثلاثة احتمالات لاعتبار البلاغة:[(١)]

الأول: إفهام المعنى وهو يرى أن البلاغة ليست ذلك، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عييّ.

الثاني: تحقيق اللفظ على المعنى (يقصد الرُّماني مطابقة اللفظ للمعنى)،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن، الرُّماني، ص ٧٥.

وليست البلاغة في ذلك، لأنه قد يطابق اللفظ المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، بمعنى أنه يمكن أن يعبر المتكلم بلفظ مطابق للمعنى الواحد بلفظين أحدهما فصيح والآخر ليس كذلك.

الثالث: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وهذه فقط هي البلاغة، وهو بذلك يوافق الراغب الأصفهاني حيث يرى أن البلاغة تقال على وجهين:

أحدهما: "أن يكون الكلام بذاته بليغاً بأن يجمع ثلاثة أوصاف، صوابه في موضوع لغته، ومطابقته للمعنى المقصود، وصدقه في نفسه...

الثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له "[(١)].

وقد أفاد علماء البلاغة من تعريف الرماني حينما تحدثوا عن الفصاحة والبلاغة، وقالوا: إن الفصاحة قد تكون في الكلمة أو المتكلم أو الكلام، أما البلاغة فلا تكون إلا في المتكلم والكلام.

وهذا ما قرره الرماني حيث اشترط للبلاغة اجتماع فصاحة المتكلم بأن لا يكون عيباً، وفصاحة الكلام بأن لا يكون ثقيلاً أو معقداً أو ضعيف التأليف، وزاد شرطا ثالثاً هو إيصال المعنى إلى القلب.

وهذا تأصيل دقيق من الرُّماني أفاد منه من بعده في تقرير قواعد البلاغة. فالقزويني – مثلاً – يرى أن بلاغة الكلام في مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته حيث قال بعد أن بين اختلاف مقتضى الحال تبعاً لاختلاف مقامات الكلام: "وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام وارتفاع؛ شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته له، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب وهذا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم، حيث يقول: النظم توخي معاني النحو فيما بين الكلام على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام فالبلاغة صفة راجعة

---

(١) المفردات، الراغب، مادة بلغ.

إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب، وكثيراً ما يسمى ذلك فصاحة أيضاً، وهو مراد الشيخ عبد القاهر بما يكرره في دلائل الإعجاز من أن الفصاحة صفة راجعة إلى المعنى دون اللفظ "[١].

ثم يخلص الرُّماني بعد ذلك إلى أن أعلى طبقات البلاغة في الحسن هي بلاغة القرآن، وأن أعلى طبقات البلاغة خاصة في القرآن، ولا توجد في غيره من الكلام، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم عام للعرب والعجم من باب أولى[٢]. فكما أن الشعر المفحم معجز للمفحم خاصة، فإن القرآن معجز للمتحدى، وكذلك معجز للعامة.

المبحث الثاني
طبقات البلاغة

بدأ الرُّماني في بيان طبقات البلاغة وهي عنده ثلاث طبقات،[٣] وهذا التقسيم صار محور نظرية الإعجاز عنده، قال الرمانّي: "فأما البلاغة فهي ثلاث طبقات: منها: ما هو في أعلى طبقة، ومنها: ما هو في أدنى طبقة، ومنها: ما هو في الوسط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها فهو معجز وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس"[٤].

مبادئ نظريته

١ - بلاغة القرآن وهي أعلى طبقة، وهذه الطبقة معجزة، وهي طبقة القرآن الكريم (حصراً)، وقصد الحصر ظاهر من صيغة عبارته، حيث قال "فهو معجز، وهو بلاغة القرآن" وهذه صيغة تفيد الحصر.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ص ١٣، بتصرف.
(٢) النكت، ص ٧٦.
(٣) النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٥.
(٤) النكت، ص ٧٥.

٢ – أدنى طبقة، ولعله قصد من هذه الطبقة الكلام الأعلى مستوى من كلام عامة الناس.

٣ – وسط بين ذلك، وهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس.

هذا تقسيم الرُّماني للبلاغة؛ ولأهميته تابعه فيه كثير ممن بعده، فذكر القزويني مثلاً "أن للبلاغة طرفين: أعلى، وهو حد الإعجاز، وما يقرب منه، وأسفل منه"(١).

وقد قسم الخطابي(٣٨٨هـ) في رسالته بيان إعجاز القرآن البلاغة تقسيماً آخر يختلف عن تقسيم الرماني، ولكنه مع ذلك يتفق معه في النتيجة في أن بلاغة القرآن هي أعلى طبقة، إذ يرى الخطابي أن أجناس الكلام لا تخرج عن ثلاثة:(٢)

١ – البليغ الرصين الجزل.

٢ – الفصيح القريب السهل.

٣ – الجائز الطلق الرسل.

وبلاغة القرآن كما يرى الخطابي اشتملت على هذه الأنواع الثلاثة، وهذا لا إشكال فيه، ومعناه: أن كل ما في القرآن بليغ، بلغ أعلى درجات البلاغة، وهي الطبقة التي وصفها الرُّماني بقوله: بأنها العليا، وهي المعجزة، وهي بلاغة القرآن الكريم، وهذه الطبقة تأتي على أنواع ثلاثة، هي التي ذكرها الخطابي، وهي كلها أعلى درجات البلاغة، وهو بالتأكيد لا يعني أن الأولى عالية والثانية وسطى والثالثة دنيا. وعليه فإن تقسيم الرُّماني يشمل كل أقسام الكلام، أما الخطابي فيقسم الأعلى منها إلى أنواع ثلاثة.

وسواء أعتمد العلماء هذا التقسيم أم غيره فقد أجمعوا على أن القرآن هو الطبقة العليا، وهي الطبقة المعجزة حصراً. وبرغم اختلاف العلماء في تحديد

(١) الإيضاح القزويني، المقدمة ص ٣.
(٢) بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، الخطابي ص ٢٧.

وجوه الإعجاز إلا أنهم يكادون يجمعون على أن وجه الإعجاز الرئيس هو بلاغته، يقول ابن عاشور: "**وأما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر عليه أئمّة الأشعرية وإمام الحرمين (٤٧٨هـ)، وعليه الجاحظ (٢٥٥هـ) وأهل العربية كما في المواقف،**[(١)] **فالتعليل: عجز المتحدّين به لبلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله، وهو الذي نعتمده**"[(٢)].

المبحث الثالث

أقســـام البلاغــة

قسم الرُّماني البلاغة إلى عشرة أقسام هي:

الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والبلاغة، والبيان، والرُّماني بهذا التقسيم يجعل إعجاز القرآن البلاغي في اجتماع هذه الفنون البديعة فيه.

المطلب الأول

الإيجــاز

يعرف الرُّماني الإيجاز بأنه "تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، ويوضح ذلك بأن المعنى قد يعبر عنه بألفاظ قليلة، وقد يعبر عنه بألفاظ كثيرة، وعندها يكون استخدام القليل من اللفظ هو الإيجاز"[(٣)].

وهذا يعني أن الإيجاز البليغ عند الرُّماني لا بد فيه من أمرين: اختصار الألفاظ، وتمام المعاني، وهذا ما سار عليه البلاغيون. فابن سنان – مثلاً – في سر الفصاحة يعتبر الأصل في مدح الإيجاز الاختصار في الألفاظ مع الوفاء

(١) المواقف مع شرح الجرجاني)، الإيجي، ٨/ ٢٦٨. وذكر الألوسي أن المشهور عند الجمهور الاقتصار على بلاغة القرآن وفصاحته، انظر: روح المعاني، ١/ ٤٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ١٠١.

(٣) النكت ص ٧٦.

بالمعنى، ويرى أن الاختصار في الكلام محمود؛ "لأن الألفاظ غير مقصودة في أنفسها، وإنما المقصود هو المعاني، والأغراض التي احتيج إلى العبارة عنها بالكلام؛ فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعاني التي هي مقصودة، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء في السهولة إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر فلا بد أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما وأقربهما سلوكاً إلى المقصد، فإنْ تقارب اللفظان في الإيجاز وكان أحدهما أشد إيضاحاً للمعنى كان بمنزلة تساوي الطريقين في القرب وزيادة أحدهما بالسهولة"[(١)].

أقسام الإيجاز:

يقسم الرُّماني الإيجاز إلى قسمين: إيجاز حذف، وإيجاز قصر.

إيجاز الحذف

يعرف الرُّماني إيجاز الحذف بأنه إسقاط كلمة للاجتزاء عنها، بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام[(٢)].

وتوضيح كلامه: أن إيجاز الحذف يعني الاستغناء عن الكلمة أو الكلمات والاكتفاء عنها بدليل لفظي من حال الكلام، أو دليل معنوي من فحواه يدل عليه، ويضرب على ذلك مثالاً من قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف:٨٢) أي أسال أهلها، ويقصد الرُّماني بهذا المثال حذف كلمة (أهل) وعليه فالمقصود اسأل أهل القرية، وقد حذفت لدليل معنوي هو أن القرية لا تعقل، وبالتالي فالسؤال لأهلها وليس لها، وحسن هذا الإيجاز في اختصار الكلام دون الإخلال بالمعنى وهو من أحسن البلاغة.

وهنالك نوع آخر من إيجاز الحذف هو حذف الأجوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ

---

(١) انظر مثلاً: سر الفصاحة، ابن سنان، ص ٢٠٣، وكذلك ٢١٤. وانظر كذلك المثل السائر لابن الأثير، ١/٦٧.

(٢) النكت، ص ٧٦.

﴿أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (الزمر:٧٣)، قال الرُّماني: كأنه قال: حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير، وتوضيح كلام الرُّماني: أن (إذا) شرطية يلحقها شرط وجواب، وشرطها – هنا – ﴿جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾، أما جوابها فمحذوف تقديره حصلوا على النعيم المقيم، حذف لدلالة الكلام عليه، وهذا إيجاز حذف، ويعلل الرُّماني كون الحذف أبلغ من الذكر أن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان(١).

وهذا يعني أن للحذف بالإضافة للاختصار سراً آخر هو أن النفس تذهب في المحذوف إلى كل مذهب حسن ترغبه، وفي ذلك سعة في النعيم أكثر مما لو ذكر وقصرت على المذكور. وهذا تعليل ينبئ عن عمق ذكاء الرجل، ودقة ملاحظته، وسلامة ذوقه، وقد أشار إلى هذا السر الزمخشري فقال: "(حتَّى) هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية، إلا أنّ جزاءها محذوف، وإنما حذف لأنه صفة ثواب أهل الجنة، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف"(٢).

ولأهمية كلام الرُّماني هنا أخذه عنه من بعده مع تطوير وتفصيل، كما فعل القزويني، حيث ذكر أن من الإيجاز: ما يكون بحذف، والمحذوف إما جزء جملة، أو جملة، أو أكثر من جملة، ثم ذكر أقسام ذلك ومثل عليه، وقال: إن الغرض منه الاختصار لوجود دلالة تغني عنه(٣).

إيجاز القصر:

وهو التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ دقيقة، ويعني الرُّماني بهذا أن إيجاز القصر هو ما ليس فيه حذف شيء مما يؤدى به أصل المراد، كما يقول التفتازاني(٤). وهذا الوجه – كما يرى الرُّماني – أغمض (أي أدق) من سابقه،

---

(١) النكت، ص ٧٧.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ١٤٧.
(٣) انظر الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ص ١٨٠.
(٤) مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، ص١٧٢.

وذلك للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لا يصلح. فالرُّماني يرى أن إيجاز القصر أبلغ من إيجاز الحذف.

وهذا الضرب من الإيجاز كما يقول الرُّماني كثير، ويضرب عليه أمثلة عديدة، منها: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٩). ثم يعقد مقارنة بين الإيجاز في هذه الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، وما استحسنه الناس من إيجاز في قولهم: "القتل أنفى للقتل"، ومقارنته كانت من خلال أربعة وجوه:[١]

الأول: أنها أكثر في الفائدة، ففي الآية زيادة عن القول المأثور الإشارة إلى العدل؛ لذكرها القصاص، وإبانة الغرض المرغوب فيه؛ لذكرها (الحياة)، والحث على الالتزام بالرغبة والرهبة؛ لذكرها حكم الله.

الثاني: إيجاز العبارة، فالآية عشرة حروف، والقول أربعة عشر.

الثالث: البعد عن التكرار، حيث كرر في القول لفظ القتل. ويشير الرُّماني هنا إلى قضية مهمة هي أن الكلام قد يكون بليغا: ولكنه يَقْصُر عن الطبقة العليا للبلاغة إن قَصَّر في أداء المعنى، أو ذكر ما لا يتطلبه المقام.

الرابع: حسن التأليف بين الحروف، فالانتقال من الحرف إلى الذي بعده في الآية أسلس من القول المأثور.

وقضية الأصوات هذه التي ذكرها الرُّماني ارتكز عليها ووسعها كثير ممن بعده، بل اعتبرها بعض المحدثين وجها: من وجوه الإعجاز وسموه الإعجاز الصوتي، ومن هؤلاء: الرافعي حيث يقول ردا على من زعموا زيادة الحرف: (ما) في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران:١٥٩): "إن النحاة يقولون: إن ما زائدة، ومقصود قولهم زائدة في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنها كذلك في النظم يقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد

(١) النكت، ص ٧٧- ٧٨.

بالآية: تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه، وأن ذلك رحمة من الله فجاء هذا المد في (ما) وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق"[١]. والذي أراه أن هذا الوجه لا يستقل في إثبات البلاغة والإعجاز، وإنما يمكن أن يكون وجهاً من الوجوه المكملة.

ويشير الرُّماني بعد ذلك إلى قضية مهمة وهي أن البلاغة والحسن في الآية إنما كان باجتماع هذه الأمور فيها، وهذا جعلها أبلغ من القول المأثور، وإن كان الثاني بليغا. وهذا معناه أن إعجاز القرآن إنما يكون باجتماع عدة وجوه من الحسن في آن واحد، أما وجود وجه أو وجهين فليس بالأمر المعجز إذ قد يكون في كلام البلغاء واحد أو أكثر من ذلك.

ويفرق الرُّماني بين الإيجاز البليغ الذي يَتم به المعنى، والتقصير العيي الذي لا يَتم به المعنى، كما يفرق بين الإطناب الذي فيه تفصيل للغرض، وبين التطويل العيي الذي فيه تطويل بدون فائدة[٢]. وهذا وجه دقيق في التفريق إذ ليس كل حذف إيجازاً بليغاً، وليس كل تكثير تطويلاً عيياً.

ألا ترى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى:١١) فيه حرف التشبيه وهو الكاف واسم تشبيه و(مثل)، وليس هذا التكثير تطويلاً مخلاً، بل في التكثير فوائد، منها: أن يكون المقصود نفي الشبيه، بأبلغ صورة وأكمل معنى في النفي، وهذا الأسلوب على نحو قولهم: مثلك لا يكذب. وليس المقصود نفي الكذب عن مثل المخاطب، بل المقصود نفي الكذب عن المخاطب نفسه، ومعنى العبارة: أن من يكون بهذه الصفة لا يمكن أن يكذب. وعليه يكون معنى الآية: من كان بهذه الصفات العظيمة الفريدة (وهو الله سبحانه وتعالى ولا غير) لا يمكن أن يكون له مثيلاً. وقريب من هذا قولهم: إن المراد من مثله: ذاته كما في قولِهم مثلُكَ لا يفعلُ كَذا بقصدِ المبالغةِ في نفيهِ عنهُ، فإنَّه إذا نُفيَ عمَّن

(١) إعجاز القرآن. ص ١٨٩-١٩٠.
(٢) النكت، ص ٧٨.

يناسبُه كانَ نفيُه عُنهُ أَولى. وهذا ما ذهب إليه الزمخشري حيث قال: "قالوا: مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك، فسلكوا به طريقة الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، وعمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه "[١].

بعد ذلك يذكر الرُّماني أن الإيجاز (من جهة أخرى) يأتي على وجهين:[٢]

١ – إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة، وهذا يكون كثيرا في العلوم القياسية، وذلك أنه إذا فهم شرح الجملة كفى بعد ذلك حفظ النكتة؛ لأنها تكون حينئذ دالة ومغنية عن التعلق بها في نفسها. وهذا الذي ذكره الرُّماني وهو الغرض من نظم مسائل العقيدة والفقه والنحو في قصائد شعرية تقدم المعنى بأوجز الألفاظ، وهذا كذلك شأن مختصرات الشروح.

٢ – تقديم المعنى بأقل عبارة.

ثم ذكر الرُّماني فوائد الإيجاز وهي عنده.[٣]

١ – سلوك الطريق الأقرب.

٢ – تقديم الغرض المقصود دون تشعب.

٣ – إيصال الفائدة بالحَسن دون القبيح.

ثم يورد الرُّماني مزايا أخرى للإيجاز، وهي أبرز ما تظهر في إيجاز القرآن الكريم[٤].

١ – تصفية الألفاظ من الكدر.

٢ – البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من ألفاظ.

٣ – إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير.

---

(١) الزمخشري، ٤/ ٢١٧ وأبو حيان، ٩/ ٣٢٦.
(٢) النكت ص ٧٩.
(٣) النكت، ص ٧٩.
(٤) النكت، ص ٨٠.

٤ - الإيجاز والإكثار: إنما هما في المعنى الواحـد. وهذا يعنـي أن الإكثـار - يقصد الإطناب - إذا كان مناسباً للمقام كان فيه من البلاغة ما في الإيجاز "كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على النعمة، فإطناب فيه إيجاز"[(١)].

وبعد أن وصل الرُّماني إلى آخر الحديث عن الإيجاز، لم نره في أي مثال من أمثلته أشار إلى وجه الإعجاز فيه، وليس ذلك في الإيجاز فقط، بل في كل الوجوه التي سيذكرها بعد ذلك، ولعله لم يبحث ذلك لأنه بالنسبة له بيِّن، فالإعجاز وإن كان يدرك إلا أنه لا يمكن أن يحصر ويوصف وصفاً دقيقاً، بل غاية الأمر فيه أن يشار إلى ضوابطه الإجمالية، وهذا ما قامت عليه كتب المعاني والبيان، أما دليل الإعجاز؛ فيكفي فيه أن يدرك بالذوق السليم.

ويصرح بذلك السكاكي (٦٢٦هـ) حيث يقول: "واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، أو كالمَلاحة. ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان) نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللِّثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا"[(٢)].

المطلب الثاني
التشبيه

يُعَرّف الرُّماني التشبيه بأنه "العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل"[(٣)]. ومعنى كلامه: إقامة الكلام على وصف شيء بشيء لصفة مشتركة بينهما، وهذا الوصف قد يكون في النفس بأن تحس هي هذه المشابهة، وقد يكون في العقل بأن يدرك هو هذه المشابهة، وأحيانا يعبر الرُّماني عن العقل بالنفس.

---

(١) النكت، ص٨٠.
(٢) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٥٢٦.
(٣) النكت، ص٨٠.

وهذا التعريف هو ما استقر علية مصطلح التشبيه، فقد وردت تعاريف كثيرة نقلها المتأخرون عن المتقدمين، وكلها تدور في فلك واحد هو ما ذكره الرُّماني وسابقوه، خذ مثلاً تعريف القزويني، وهو أن التشبيه: "مشاركة أمر لآخر في المعنى"[(١)]. وتعريف أبي هلال العسكري، وهو أن "التشبيه: الوصف بأنّ أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب... ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة، وإن شابهه من وجه واحد"[(٢)].

ثم يذكر الرُّماني تقسيما للتشبيه ويجعله على نوعين:[(٣)]

١ - الحسي: كمائين، يقصد كقولك هذا الماء كهذا الماء، فالطرفان يقوم أحدهما مقام الآخر. قلت: وهذا لا يعني تشابها من كل الوجوه، وإلا صارا شيئاً واحداً، وإنما يعنى أن الطرفين يسد أحدهما مسد الآخر في الصفة المشتركة.

٢ - النفسي: كتشبيه قوة زيد بقوة عمرو، فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم.

وهذا التقسيم اعتمده كثيرون مع تفضيل لهذين القسمين؛ لتصبح الأقسام - باعتبار طرفيه - أربعة أقسام هي: إما حسيان، أو عقليان، أو المشبه به حسي، والمشبه عقلي، أو عكسه"[(٤)]. وهذا ما عبر عنه الرُّماني بالحس والنفس الذي هو عند المتأخرين العقلي.

ثم يذكر تقسيماً آخر للتشبيه يجعله فيه على نوعين[(٥)].

١ - تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما، كتشبيه الجوهر بالجوهر.

٢ - تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعها مشترك بينهما، كتشبيه الشدة بالموت.

---

(١) الإيضاح. القزويني، ١/ ٣٤٧.

(٢) كتاب الصناعتين، العسكري، ص ٢٣٩.

(٣) النكت، ص ٨٠.

(٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣/ ٤٧٧، وتابعه السيوطي في الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ١٢٩.

(٥) النكت، ص٨١.

ثم يصف الرُّماني التشبيه الذي فيه إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف بأنه تشبيه بليغ[1].

والرُّماني – هنا – لا يقصد التشبيه البليغ الذي تعارف عليه البلاغيون مؤخراً، وهو الذي تحذف فيه الأداة ووجه الشبه، بل يقصد أن يصف هذا الشكل من التشبيه بأنه قول بليغ. يدل على ذلك قوله (إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه) والتشبيه البليغ تحذف منه أداة التشبيه.

ومن الجدير بالاهتمام في عبارة الرُّماني: قوله: (مع حسن التأليف)، وهذا ما سماه الجرجاني النظم أو العلاقات، إذ يقول: "ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها"[2].

اتفق الشيخان على ذلك، والبلاغيون ساروا على سيرهم؛ لأن التشبيه لا تظهر قيمته الحقيقية، إلا إذا كان متصلاً مرتبطاً ببقية عناصر الكلام؛ ليعطي الكلامُ مجتمعاً صورةً بلاغية حسنة، ولو كان التشبيه مبتوراً عن السياق لبدى نافراً حتى وإن كان جميلاً، ولما أعطى جمالُه مستقلا صورةً جميلة، فإنما يظهر الحسن في الكلام باجتماع العبارات والصور بنظام مكين، يجمع الحسن إلى الحسن، ويعرضه في أتم تركيب وأبهى صورة، ويصنع منه معاني ظاهرة جميلة تكتسب من الألفاظ حسناً، وتكسب هي الألفاظ حسناً آخر، فيجتمع الحسن على الحسن، ويصل الكلام إلى أبلغ ثأثير. تلك هي نظرية النظم التي قدم لها الرُّماني ونظمها عبد القاهر الجرجاني فارس البلاغة وصاحب نظرية النظم.

والرُّماني يرى أن التشبيه هذا (أي البليغ) على مراتب يتفاضل بها أصحاب القول وهي:[3]

(١) النكت، ص٨١.

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٨٠.

(٣) النكت، ص ٨١.

١ - **الوجه الأول:** إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، كقوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ (النور:٣٩) "هذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعدم الفاقة، ولو قال: يحسبه الرائي ماء، ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر، لكان بليغاً وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصاً عليه وتعلق قلبه به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار، وتشبيه أعمال الكفار بالنار من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم"[(١)]. وفي عبارته الأخيرة يشير الرُّماني إلى الأصل الذي قرره قبل قليل واتفق معه فيه الجرجاني وهو أن حسن اللفظ لا يكتمل إلا بحسن التأليف.

٢ - **الوجه الثاني**: إخراج ما لم تجر به عادة، إلى ما قد جرت به، كقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ (الحديد:٢٠)، "فقد اجتمعا في شدة الإعجاب، ثم في التغير بالانقلاب، وفي ذلك الاحتقار للدنيا، والتحذير من الاغترار بها، والسكون إليها وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح، وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول الأمر به إلى ذلك"[(٢)].

ومنه كذلك: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ (القمر:١٩-٢٠)،"فهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة، إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما

(١) النكت، ص ٨٢.
(٢) النكت، ص ٨٤.

وإهلاكها إياهما، وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة"(١).

٣ - **الوجه الثالث**: إخراج ما لا يعلم بالبديهة، إلى ما يُعلم بها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الجمعة:٥)، "فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة، إلى ما يعلم بها، وقد اجتمعا في الجهل بما حملا، وفي ذلك العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال، على حفظ الرواية من غير دراية"(٢).

٤ - **الوجه الرابع**: إخراج ما لا قوة له في الصفة، إلى ماله قوة فيها، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ (الرحمن:٢٤). "فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له، في الصفة إلى ما له قوة فيها، وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال أعظم، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها، وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها"(٣).

هذه الأربعة: هي أغراض التشبيه، ذكرها من بعده وزادوا عليها، وممن ذكرها: عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة، ولكن بعبارات قريبة، يقول الشيخ الجرجاني عن المعاني إذا جاءت بصيغة التشبيه أو التمثيل:" فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح..وإن كان ذماً كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشد..وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب..وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر"(٤).

---

(١) النكت، ص ٨٣.
(٢) النكت، ص ٨٤.
(٣) النكت، ص٨٤.
(٤) أسرار البلاغة، الجرجاني، ٨٨-٨٩.

ثم يقسم الرُّماني التشبيه إلى وجهين:[١]

١ - تشبيه بلاغة: كتشبيه أعمال الكفار بالسراب.

٢ - تشبيه حقيقة: نحو هذا الدينار كهذا الدينار.

وقد مثل الرُّماني في هذا الفصل بأمثلة كثيرة من تشبيهات القرآن، ووقف عندها وقوف متأملٍ، واستنبط منها نكتا في غاية الرقة، وأثبت أن تشبيهات القرآن الكريم، في أعلى درجات البلاغة، ولا يدانيها شيء من تشبيهات العرب على كثرة ما فيها من حسن.

المطلب الثالث

الاستعارة

يعرف الرُّماني الاستعارة بأنها "تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة"[٢]. ومعنى كلام الرُّماني أن الكلمة عُلِّقت على غير ما وضعت له، أي جعلت مقابل معنى ليس هو الذي وضعت مقابله واستقرت دلالتها عليه.

وقريب من هذا التعريف قول الجرجاني: "الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية"[٣].

ونستطيع أن نستنبط من تعريف الرُّماني للاستعارة عدة اعتبارات:

١ - الكلمة استعملت في غير ما وضعت له في أصل اللغة.

٢ - الاستعمال كان على جهة النقل، ويقصد الرُّماني (المجاز).

٣ - الغرض من الاستعارة: التوضيح والإبانة بصورة أبلغ.

---

(١) النكت، ٨١.

(٢) النكت، ص ٨٥.

(٣) أسرار البلاغة، الجرجاني، ١/ ٢٢.

ومن خلال هذه الأمور يظهر لنا معيار التفريق بين التشبيه والاستعارة عند الرُّماني. ومعياره أن التشبيه يكون بأداة ملفوظة أو مفهومة (وهذا فيما سمي لاحقاً التشبيه البليغ)، وهو على أصله (أي ليس فيه خروج في استعمال الكلمة عما وضعت له أصلا) أما الاستعارة فهي استعمال الكلمة على غير ما وضعت له[١].

إذن الرُّماني يفرق بين التشبيه والاستعارة بأكثر من وجه، منها: الأداة. لكن ابن سنان اعترض على الرُّماني في اعتبار الفرق بين التشبيه والاستعارة إنما يكون بالأداة فقط. يقول ابن سنان: "على أن الرُّماني قال في كلامه: إن التشبيه في الكلام بأداة التشبيه... وليس يقع الفرق عندي بينهما بأداة التشبيه فقط"[٢].

قلت: اعتراض ابن سنان لا وجه له؛ لأن الرُّماني لم يقصر التفريق على الأداة – فقط – كما هو بيِّن من عبارته.

بعد ذلك يذكر الرُّماني أن أركان الاستعارة هي:[٣]

١ – المستعار، ويقصد به الرُّماني (الكلمة)، وهو يقابل المشبه به في التشبيه.

٢ – المستعار منه، ويقصد به المعنى الذي وضعت له الكلمة في أصل اللغة وهو المشبه به.

٣ – المستعار له، ويقصد به المعنى الذي استعملت فيه الكلمة، وهو ما نسميه في التشبيه المشبه.

وهذه الأركان التي بينها الرُّماني اعتمدها من جاء بعده.

والاستعارة البليغة عند الرُّماني " هي كل استعارة جُمع فيها بين شيئين

---

(١) النكت، ص ٨٥ –٨٦.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١١١.
(٣) النكت، ٨٦.

بمعنى مشترك بينهما، يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه، إلا أنه بنقل الكلمة بأداته الدالة عليه في اللغة"[(١)].

يفهم من كلام الرُّماني أن العلاقة بينهما في أن كلاً منهما جمع بين شيئين مشتركين بمعنى، والفرق بينهما أن الاستعارة تكون بنقل الكلمة من معنى إلى آخر، أما التشبيه فالجمع بينهما بأداة دالة عليه في اللغة.

ويميز الرُّماني الاستعارة الحسنة بأنها تعطي بياناً أقوى مما تعطيه الحقيقة، وإلا كانت الحقيقة أولى؛ لأنها هي الأصل[(٢)].

قلت: وفيما ذكره الرُّماني – هنا – خلاف بين العلماء، مداره ما إذا كانت الحقيقة أبلغ أم الاستعارة؟ ورأي الرُّماني أن الاستعارة إذا أعطت بياناً أقوى من الحقيقة فهي أبلغ، وإلا فالحقيقة أبلغ؛ لأنها الأصل، وهذا قول حسن، وافقه عليه علماء البلاغة.

ثم يبين شرطاً آخر للاستعارة، وهو أن يكون لها حقيقة، ولكن النقل يكسبها بياناً أقوى[(٣)]. ثم يشرع الرُّماني – بعد ذلك – ببيان أمثلة تطبيقية على الاستعارة وكلها من القرآن، وهذا مناسب للغرض الذي كتبت له هذه الرسالة وهو بيان إعجاز القرآن.

ومن هذه الأمثلة انتقي ما يلي:

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الحجر:٩٤) حقيقته بلِّغ ما تؤمر به. والاستعارة أبلغ من الحقيقة. ومن هذا المثال وغيره يظهر لنا مذهب الرُّماني في أيهما أبلغ، الحقيقة أم الاستعارة؟ ومذهبه كما بينا أن الاستعارة أبلغ إذا أدت بيانا أقوى.

يقول هنا للتمثيل على ما أصل له: "والاستعارة أبلغ من الحقيقة؛ لأن

(١) النكت، ص٨٦.
(٢) النكت، ص٨٦.
(٣) النكت، ص٨٦.

الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكون له تأثير، فيصير بمنزلة ما لم يقع. والمعنى الذي يجمعهما الإيصال؛ إلا أن الإيصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ "[١].

قلت: وهذا من أجمل ما قيل في الآية.

ثم يتنبه الرُّماني إلى أن من بلاغة الاستعارة: الإيجاز، ويمثل بقوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (الملك:٧) فيقول: "حقيقته صوت كشهيق الباكي، والاستعارة أبلغ منه وأوجز"[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ (الملك:٨) حقيقته: الغليان، والاستعارة أبلغ منه؛ لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوسة... وفي ذاك أعظم الزجر وأكثر الوعظ"[٣]. وهو هنا يبيِّن وجهاً آخر لتفضيل الاستعارة على الحقيقة، وهو مدى إدراكها وتأثيرها في النفس.

وفي مواضع يشتبه فيها أسلوب الاستعارة بالمجاز يختار الرُّماني الاستعارة، وقد يختار غيره المجاز، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ (الإسراء:١٢) يقول مبصرة هنا استعارة، وحقيقتها: مضيئة[٤]، لكننا نجد الألوسي مثلاً يعدها من المجاز المرسل[٥].

ومن خلال الأمثلة نلاحظ أن الرُّماني لم يعرض إلى تقسيمات الاستعارة والتقسيم الذي استقر عليه الأمر حدث بعده.

---

(١) النكت، ص ٨٧.
(٢) النكت، ص٨٧.
(٣) النكت، ص٨٧.
(٤) النكت، ص ٨٨.
(٥) روح المعاني، للألوسي، ٢٦/٨.

المطلب الرابع
التلاؤم

يعرف الرُّماني التلاؤم بأنه "تعديل الحروف في التأليف، وهو نقيض التنافر"[(١)]. قلت: هذا الوجه والاثنان بعده وهما الفواصل والتجانس تتعلق بالأداء الصوتي، وتوضيح كلام الرُّماني أن مخارج حروف العربية مختلفة، تبدأ من أقصاها بعداً إلى الداخل وهو الحلق، إلى أقربها إلى الخارج وهو الشفتين، فإذا كان الانتقال من حرف إلى الذي بعده سهلاً سلساً فإن هذا من التلاؤم.

في باب الإيجاز وجدنا الرُّماني يفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩) وقولهم: "القتل أنفى للقتل" بأن الآية أبلغ من القول من وجوه، ذكر منها سهولة الانتقال من الحرف إلى الذي يليه، وهذا ما سماه هنا التلاؤم. أما إن كان في الانتقال صعوبة قد تؤدي إلى التلعثم فهو التنافر، ويضرب لذلك مثالا قول الشاعر.

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

"ويقول: بعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض"[(٢)] ومعنى ذلك أن الرُّماني يربط بين قضية التلاؤم والإحساس، وهذا مما يتفاضل به الناس.

ويستشهد الرُّماني بما ذهب إليه الخليل بن أحمد من أن سبب التنافر البعد الشديد أو القرب الشديد بين مخارج الحروف، فإن كان البعد شديداً كان النطق صعباً كصعوبة القفر، وإن كان القرب شديداً كان النطق صعباً كصعوبة مشي المقيد[(٣)].

قلت: وهذا ليس على إطلاقه، انظر إلى التباعد والتقارب بين مخارج

---

(١) النكت، ص ٩٥.
(٢) النكت، ص٩٥.
(٣) النكت، ص٩٦.

الحروف في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٤٥) فالميم والنون والذال متقاربات جداً، والألف بعيد المخرج عنها ومع ذلك فإنك لا تحس بتنافر في الآية. وهذا يؤكد أن القضية مرتبطة بالإحساس كما نص على ذلك الرُّماني؛ خلافا لما أطلقه الخليل بن أحمد. والذي أراه أن التنافر إنما ينتج عن الانتقال بين مخارج الحروف؛ مما يؤدي إلى صعوبة في النطق.

ثم يقسم الرُّماني الكلام من هذه الجهة إلى ثلاثة أقسام:[١]

١ - متلائم من الطبقة العليا، وهو القرآن على سبيل الحصر.

٢ - متلائم من الطبقة الوسطى، ويظهر في بعض كلام البلغاء.

٣ - متنافر، نحو البيت الذي مثَّل به الرُّماني فيما سبق.

وهذا تقسيم الخطابي نفسه لمستويات الكلام المتلائم،[٢] وقد اعترض ابن سنان الخفاجي على هذا التقسيم وقال: إن الكلام قسمان: إما متلائم وإما متنافر، وهو بذلك يلغي القسم الثالث عند الرُّماني وهو التلاؤم من الطبقة العليا.

يقول ابن سنان بعد ذكر قسمة الرُّماني: "وهذا الذي ذكره غير صحيح والقسمة فاسدة؛ وذلك أن التأليف على ضربين: متنافر ومتلائم، وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض"[٣].

قلت: ولست مع ابن سنان فيما ذكر لسببين:

الأول: أن الخلاف شكلي؛ لأن ابن سنان يقسم الكلام إلى طبقتين، جعل من الأولى ما كان في أعلى مرتبة في التلاؤم، وهذا ما سماه الرُّماني الطبقة العليا، وعليه فإن الخلاف مشاحَّة في الاصطلاح لا أثر له في الواقع.

الثاني: أن ما دفع ابن سنان إلى هذا القول أنه ينكر أن يكون إعجاز القرآن

---

(١) النكت، ص٩٥.

(٢) بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص ٢٦.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ٩١.

ببلاغته ونظمه، ويقول: إن من كلام الناس ما كان بمستوى بلاغة القرآن، وهذا قول مردود ومخالف للجمهور، أما الرُّماني فيعتبر إعجاز القرآن في وجوه، منها: بلاغته، لذلك اعتبر بلاغة القرآن لا مثيل لها، وجعلها في مرتبة خاصة هي الطبقة العليا؛ لئلا تدخل في المقارنة مع كلام البشر.

أما فائدة التلاؤم فهي:[١]

١ - حسن الكلام في السمع.

٢ - سهولة في اللفظ.

٣ - تقبل النفس للمعنى؛ لما امتاز به اللفظ من حسن الصورة وطريقة الدلالة.

ثم يضيف الرُّماني إلى هذه الميزات ميزة رابعة تجعل الكلام في أعلى طبقات البلاغة، فيقول:" فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام "[٢].

وهنا نجد الرُّماني يشير إشارة صريحة إلى وجه إعجاز القرآن الكريم من جهة البلاغة. فيقول (فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان) وهذا فيه إشارة صريحة إلى أن الإعجاز لا يكون بوجه من وجوه البلاغة العشرة وحده، ولا - كذلك - بوجه من وجوه الإعجاز التي عدها وحده، بل في اجتماع هذه الوجوه البلاغية مع حسن البيان، ومع غيرها مما ذكر من وجوه الإعجاز. وليس القصد بذلك أنّ كل ما وقع به التحدي حوى كل هذه الوجوه، بل القصد أن القرآن بالجملة حوى كل هذه الوجوه، فكان معجزاً بها جميعاً، وعندها قد تجد في آية أبعاضاً من ذلك، وفي أخرى أبعاضاً أخرى وهكذا.

ويوضح هذه الإشارة فيقول: "وقد عمّ التحدي به للجميع؛ لرفع الإشكال، وجاء على جهة الإخبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز"[٣].

---

(١) النكت، ص ٩٦.
(٢) النكت، ص٩٦.
(٣) النكت، ص ٩٦-٩٧.

ونص الرُّماني هذا صريح بأن المعارضة غير ممكنة بسبب العجز عنها، وهذا يجعل إيراده للصرفة وجهاً من وجوه الإعجاز محل إشكال واضطراب، أو لعله قصد أن التحدي بالمعارضة كان لأكثر من سبب، منها: العجز، ومنها: الصرفة، وهذا غير مقبول كما سنبين لاحقا أن شاء الله.

ثم ذكر الرُّماني آيات التحدي على الترتيب الذي ذكرته في أول هذا البحث،[١] ثم قال: قامت الحجة على العربي والعجمي بعجز الجميع عن المعارضة إذ بذلك تبين المعجزة[٢] وتوضيح كلامه أن العربي عجز عن المعارضة بسبب الإعجاز على الرغم من أنه صاحب اللغة، وهذا يدل على إن العجمي عاجز من باب أولى.

المطلب الخامس

الفواصل

الفواصل عند الرُّماني: حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، وهي وجه البلاغة[٣]. ويفرق الرُّماني بين الفواصل والأسجاع، بأن الأولى تابعة للمعاني وأما الثانية: فالمعاني تابعة لها، وهي ليست إلا مشاكلة صوتية.

كلام الرُّماني هذا ليس صحيحاً بإطلاقه إذ نجد في كلام البلغاء سجعاً تابعا للمعنى فيه من الجمال ما فيه، لذا أرى أن الأصح أن نقسم السجع إلى نوعين: متكلف، وهو المذموم، وغير متكلف، وهو الممدوح الجميل. وهذا ما ذكره الرُّماني حيث قال: "إذا كان الغرض إنما هو الإبانة عن المعاني التي تمسُّ الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة وصلةً إليها فهو بلاغة، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولُكْنَه؛ لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة"[٤].

---

(١) النكت، ص ٩٧.
(٢) النكت، ص٩٧.
(٣) النكت، ص ٩٧.
(٤) النكت، ص٩٧.

وهذا الكلام ينسجم مع نظرية الرماني في أن البلاغة في الكلام: الإبانة عن المعاني ثم حسن التأليف، أما إن كان التأليف هو الأصل والمعاني تابعة له فليس ذلك من البلاغة.

ولعل ما دفع الرُّماني إلى هذا القول إنكاره لوجود السجع في القرآن الكريم، لأن من وجوه الإعجاز عنده: نقض العادة بمعنى أن القرآن جاء مخالفاً لما عهده من أشكال القول، فإذا قلنا: إن في القرآن سجعاً لم يكن ناقضاً للعادة؛ لأن السجع كان معروفا عندهم.

قلت: هذه الشبهة مدفوعة، لأنا وإن قلنا: إن من سجع الناس: ما هو بليغ، فلسنا نعني أن في القرآن سجعاً مذموماً، بل غاية ما في الأمر أن فواصل القرآن بلغت أعلى رتبة في البلاغة، وهي تشبه ما يسمى بالسجع من جهات، لكن السجع دونها في الرتبة.

ويبين الرُّماني – بعد ذلك – مزية فواصل القرآن بأنها طريق إلى إفهام المعاني التي تحتاج إلى أفضل صورة دالة. أما السجع: فليس إلا مشاكلة صوتية لذا سمي سجعاً من سجع الحمام، الذي ليس فيه إلا المشاكلة الصوتية[١]. قلت: ليس كل السجع من هذا النوع كما بينت.

بعد ذلك يذكر الرُّماني أن الفواصل نوعان:[٢]

١ – الحروف المتجانسة: نحو: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ (الطور:١–٢).

٢ – الحروف المتقاربة: نحو: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ (الفاتحة:٣–٤).

ومزية بلاغة الفواصل المتقاربة: أنها تزيد الكلام بياناً، بتمييز الفواصل والمقاطع، ولما فيه من حسن العبارة. ثم يميِّزُ الرُّماني بين القوافي والفواصل، بأن القوافي ليست في الطبقة العليا من البلاغة، وإنما حسن الكلام فيها إقامة

(١) النكت، ص٩٨.
(٢) النكت، ص٩٨.

الوزن ومجانسة القوافي،[1] والفرق بينها وبين الفواصل أن الفواصل يمكن أن تكون متقاربة وليست كذلك القوافي.

ويبين الرُّماني بعد ذلك أهمية الفواصل بما يلي:

١ - دلالتها على المقاطع.

٢ - تحسين الكلام بالتشاكل.

٣ - إبداؤها في الآي بالنظائر، وتمييز رؤوس الآيات، وهذا يُبَيِّن الوقوف ويساعد على فهم المعاني[2].

المطلب السادس

التجانس

يعرف الرُّماني التجانس بأنه "بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة"[3].

قلت: وهو قريب مما يسمى عند علماء البديع بالجناس، ولكنه أعم منه؛ لأنه يشمل كذلك المشاكلة، وهو نوعان:[4]

١ - مزواجة: ويضرب عليه مثالا قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ١٩٤) أي جازوه بما يستحق على طريق العدل إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد دلالة المساواة في المقدار، فجاء على مزواجة الكلام لحسن البيان. وهذا النوع يقع في الجزاء غالباً.

ثم يعقد الرُّماني مقارنة بديعة بين تجانس القرآن وقول الناس **(الجزاء بالجزاء)**، فالأول ليس بجزاء وإنما الغرض مزواجة الكلام ـ ثم يقول ـ وهذا حَسنٌ في البلاغة إلا أنه دون بلاغة القرآن الذي يضيف معنى

(١) النكت، ص٩٨.
(٢) النكت، ص٩٩.
(٣) النكت، ص ٩٩.
(٤) النكت، ص٩٩.

العدل، بينما في القول الإشارة إلى الجزاء فقط. ثم إن قولهم قام على الاستعارة للأول، بينما الاستعارة للثاني أولى من الاستعارة للأول؛ لأن الثاني يحتذى فيه على مثال الأول في الاستحقاق، فالأول بمنزلة الأصل، والثاني بمنزلة الفرع الذي يحتذى فيه على الأصل؛ لذلك كانت مزواجة القرآن أفضل من قولهم[(١)].

٢ – مناسبة: وهي تدور على فنون المعاني التي ترجع إلى أصل، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة:١٢٧) فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء، أما هم فذهبوا عن الذكر[(٢)].

المطلب السابع
التصريف

يذكر الرُّماني أن معناه: "تصريف المعنى في المعاني المختلفة، كتصريفه في الدلالات المختلفة"[(٣)]. وهذا التعريف الذي ذكره الرُّماني يشتمل على نوعين من التصريف:

أولهما: تصريف المعنى في المعاني المختلفة،[(٤)] ولعل الرُّماني هنا يقصد ما ذكر النحويون في باب الاشتقاق من أن اللفظ يمكن أن يتركب بعدة طرق ليدل على عدة معان تعود إلى أصل واحد، أو هو ما يسمى تصريف المباني.وتوضيح ذلك من خلال هذين المثالين: مادة مَلَكَ ومادة عرض، تصرف عن المادة الأولى عدة مبان منها: مالك، ملك، وتمليك، وتمالك، ومملوك، وكلها تدور حول معنى الحيازة، وتصرف عن المادة الثانية: أعراض، واعترض، واستعراض، وعرض، وعروض... وكلها تدور حول معنى الظهور.

---

(١) النكت، ص١٠٠.
(٢) النكت، ص١٠٠.
(٣) النكت، ص١٠١.
(٤) النكت، ص ١٠١.

ثانيهما: تصريف المعنى في الدلالات المختلفة[1]، ولعل مقصود الرُّماني هنا هو ما يعبر عنه بتقديم المعنى المراد بعدة عبارات، نحو القصة في القرآن تذكر أكثر من مرة بأكثر من عبارة، وكلها تخدم المعنى وتثريه وتكمله من غير تكرار مخل. فقصة موسى مثلا ذكرت عدة مرات بعبارات مختلفة كلها تخدم المعنى العام. ويبين الرُّماني –بعد ذلك– فائدة هذا الأسلوب في ثلاثة أمور هي:[2]

١ – التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ومعنى ذلك: أن القرآن يقدم المعنى الواحد بعدة عبارات كلها في أعلى مراتب البلاغة.

٢ – تمكين العبرة والموعظة، وهذا يكون بالتكرار المفيد البليغ.

٣ – حل الشبهة في المعجزة.

وكلام الرُّماني – هذا – في غاية الدقة والأهمية، وفيه ردٌّ لشبهة أثيرت حول المعجزة هي أن معارضتها غير ممكنة، والرد على هذه الشبهة من خلال باب التصريف بنوعه الثاني، وتوضيح ذلك أن المعارضة إما ممكنة، وإما غير ممكنة، أما غير الممكن فيضرب له الرُّماني مثلا: لو قيل: ائت بجذر للعدد مائة غير العشرة فهذا غير ممكن، أما التحدي بالقرآن فهو ممكن بدليل أن القرآن نفسه قدم عدة معان بعبارات مختلفة وكلها في أعلى رتب البلاغة، دل ذلك على أن معارضة هذه المعاني ممكن لصاحب هذا القول وهو الله عز وجلَّ، فإذا كان غير ممكن للخلق فهو معجز. يقول الرُّماني: "الله عز وجل يقدر أن يأتي بما شاء من مثل القرآن، فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة"[3].

المطلب الثامن
التضمين

معناه حصول معنى في الكلام من غير اسم له أو صفة[4]. وهذه الدلالة

---

(١) النكت، ص١٠١.
(٢) النكت، ص١٠٢.
(٣) النكت، ص١٠٢.
(٤) النكت، ص١٠٢.

كما يرى ابن عاشور "لا تتأتّى في كلام العرب؛ لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم، بخلاف القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة، وبتلك الإطالة يأتي تعدد مواقع الجمل والأغراض"(١).

وهذا مما ذكره الرُّماني وعده من وجوه الإعجاز فقال: معناه عنده حصول معنى في الكلام من غير اسم له أو صفة(٢).

قلت يبدو أن وجه البلاغة في التضمين إيراد معان مستفادة من اللفظ إضافة للمعنى الأصلي الذي وضعت له، وهذا يثري المعاني المستفادة من التركيب نفسه. وهو قسمان:(٣)

١ – ما يدل عليه دلالة الإخبار، كقولك السماء مُحدثة، فهذا يدل – ضمناً – على وجود المحدث، وهذا القسم نوعان:

الأول: تضمين توجبه البنية، نحو الصفة بمعلوم توجب أنه لا بد من عالم.

الثاني: تضمين يوجبه معنى العبارة وهو وجهان:

أ – يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به، نحو الصفة بقاتل تدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل، ولا مقتول هنالك.

ب – يوجبه معنى العبارة من جهة جريان العادة، نحو قولهم: الثوب بعشرة، والمقصود دنانير وقد حذف لفظ دنانير، وضمن الكلام معناه لجريان العادة به، وهذا معناه أن التضمين إيجاز استغني به عن التفصيل؛ لوجود الدلالة عليه.

٢ – التضمين الذي عليه دلالة القياس. وهذا النوع هو الذي جعله الرُّماني وجهاً من وجوه إعجاز القرآن حيث يقول: "فهو إيجاز في كلام الله

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١/ ١٠٨.

(٢) النكت، ص١٠٢.

(٣) النكت، ص١٠٢–١٠٣.

خاصة"[1]. لأن كلام الله تعالى لا يفوِّت وجهاً من وجوه الدلالة، فنصَّب العبارة على نحو ما يوجب أن يكون كل معنى صحيح محتملاً مراداً، وليس كذلك كلام الناس.

يقول الرُّماني: "كل آية لا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة"[2]. ويمثل على ذلك بأن قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يتضمن عدة معان، منها: تعليم الاستفتاح بها، والتبرك بها، وتعظيم الله بها، وإقرار بالعبودية، واعتراف بالنعمة، ومعان أخرى محتملة وصحيحة وكلها مرادة.

ولعل هذا الذي ذكر الرُّماني ما سماه اللاحقون معاني المعاني، أو المعاني الثانوية، أو مستتبعات التراكيب.

المطلب التاسع
المبالغة

المبالغة عند الرُّماني: "الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة"، والذي يقصده الرُّماني هنا تكبير المعنى في الذهن بتغيير اللفظ أو النظم عن أصله.

ثم ذكر الرُّماني وجوه المبالغة، وبنظرة عامة نرى أن الأوجه التي ذكرها تندرج تحت أبواب مختلفة من أبواب النحو والبيان والبديع، وهذا شأن حديثه في الوجهين السابقين كما رأينا. ولعل هذه كانت محاولات أولية لتقسيم الأبواب ودلالة المصطلحات، الأمر الذي تطور حتى استقر إلى ما هو عليه الآن. والأوجه التي ذكرها هي[3].

١ - المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة. وهذا الذي ذكره الرُّماني هو نفسه باب المبالغة في النحو، والذي يكون بتغيير بناء اللفظ

---

(١) النكت، ص ١٠٣.
(٢) النكت، ص ١٠٣.
(٣) النكت، ص١٠٤-١٠٦.

إلى أبنية تعرف منها المبالغة، ومن أبنية المبالغة: فعلان نحو عطشان، وفعول نحو أكول، فالأولى معدولة عن فعل، والثانية معدولة عن فاعل.

٢ – المبالغة في الصيغة العامة في موضع الخاص نحو خالق كل شيء.

٣ – إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم والأكبر نحو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر:٢٢) حيث ذكر في الآيات ما فيه تعظيم الله مثل اصطفاف الملائكة.

٤ – إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٠)

٥ – إخراج الكلام مخرج المشكوك فيه نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ (الزخرف:٨١).

٦ – حذف الأجوبة نحو حذف جواب لو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام:٢٧) والجواب المحذوف (لجاء الحق أو لعظم)، وما إلى ذلك من الأجوبة المبالغ فيها مما تذهب إليه النفس.

وكما ذكرت بالبداية وجدنا الرُّماني ذكر النوع الأول من باب النحو، والثاني من باب المجاز، والأخير من باب مجاز الحذف الذي تحدث عنه الرُّماني في البداية.

المطلب العاشر

البيان

يعرِّف الرُّماني البيان بأنه "الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك"[(١)]. ومعنى كلام الرُّماني: إيصال المعنى إلى الذهن بحيث يتميز الشيء عن غيره.

(١) النكت، ص ١٠٦.

وكلامه هنا يُذَكِّر بكلام له في تعريف البلاغة في أول الرسالة، حيث قال عن البلاغة: "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ "[1]. وعندها قال ليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يُفهم المعنى عيي، وهذا يعني أن البيان إفهام المعنى، والبلاغة إفهام المعنى في أحسن صورة من اللفظ وعليه يستقيم جعله البيان قسيم البلاغة. ويؤكد ذلك قوله: "وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن"[2]. يقصد أنه ليس كل كلام مفهوم المعنى بليغا لأنه قد يكون عييّا فاسداً وإن أفهم المعنى.

لكن قوله بعد ذلك: "وليس بحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبح من اللفظ من الكلام، لأن الله قد مدح البيان واعتد به حيث قال:﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن:٣-٤)، ولكن إن قيد بما يدلُّ على أنه يعني به إفهام المراد جاز"[3].

وقوله هذا يجعل معنى البيان عنده مضطرباً ولا ندري أهو يقصد به الإفهام بالحسن من الكلام؟ وعندها يكون رديف البلاغة. أم هو مثل البلاغة في الإفهام، والفرق أن البلاغة إفهام بأحسن الكلام، بينما البيان إفهام بكلام حسن أقل رتبة.أم يقصد أن البيان مجرد الإفهام سواء أكان بكلام حسن أم دون ذلك، وعندها لا وجه لقوله: وليس بحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبح من اللفظ. والذي أرجحه أنه قصد أن الكلام على ثلاثة مراتب:

أولها: الإفهام بأحسن لفظ وهو البلاغة.

ثانيها: الإفهام بلفظ حسن وهو البيان.

ثالثها: الإفهام بلفظ قبيح وهذا ليس بلاغة ولا بياناً.

ويقسم الرُّماني البيان إلى أربعة أقسام:[4] كلام وحال وإشارة وعلامة، وقد

---

(١) النكت، ص٧٥.
(٢) النكت، ص ١٠٦.
(٣) النكت، ص١٠٦.
(٤) النكت، ص١٠٦.

سبق الرُّماني في تقسيمه هذا للبيان الجاحظ، لكنَّه قسمها على وجه آخر، فذكر أن جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: "أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الكلام"(١).

وفي هذا السياق قسم الرُّماني الكلام إلى قسمين: البيان على ما عرَّفه، وضدُّه الكلام الذي لا يظهر به تميز الشيء، وهذا ليس بيانا(٢). ثم يقسم الرُّماني البيان إلى مراتب:(٣)

أعلاها ما جمع أسباب الحسن في العبارة، ولعل هذا المستوى من البيان عند الرُّماني هو ما أطلق عليه في الأول البلاغة بما جمعت من الوجوه العشرة.

ثم يبين الكلام الذي يكون به البيان، وهو: إما بالاسم نحو قولك زيد، أو بالصفة، نحو قولك: مفهوم، وبالتأليف نحو قولك: غلام زيد، ومثل دلالة التأليف دلالة الاشتقاق، نحو قولك: قاتل، تدل على قتل ومقتول من غير ذكر اسم أو صفة، ولكن المعنى مضمن بالصفة المشتقة، ودلالة الأسماء والصفات متناهية أما دلالة التأليف فليست متناهية(٤)؛ ولأن دلالة التأليف ليست لها نهاية كان التحدي فيها بالمعارضة لتظهر الإعجاز(٥).

والرُّماني هناك يعرض إلى وجه الإعجاز في بلاغة القرآن بشكل مباشر فالإعجاز عنده بالبلاغة، وهي عدة وجوه، منها: البيان، وقد وقع التحدي بالتأليف منه؛ لأن طرائق التأليف ليست متناهية، وقد بلغ القرآن نهاية الحسن في البيان فلا سبيل لمعارضته. ثم ذكر الرُّماني أمثلة على حسن بيان القرآن.

هذه البلاغة عند الرُّماني وهذه وجوهها، وقد أخذت جزءاً كبيراً من رسالته وتحدث عنها أول شيء على الرغم من أنه ذكرها في الوجه الرابع وهذا يدل على أنها الوجه الأهم في الإعجاز عنده.

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ص٥٥.
(٢) النكت، ص ١٠٦.
(٣) النكت، ص ١٠٧.
(٤) النكت، ص ١٠٧.
(٥) النكت، ص١٠٧.

الفصل الثاني
بيان باقي وجوه الإعجاز

كما عاد بعد حديثه عن البلاغة إلى الحديث عن باقي الوجوه السبعة نعود ونتحدث عنها ونناقشها وجهاً وجهاً:

المبحث الأول
ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة

يوضح الرُّماني هذا الوجه فيقول:" أما توافر الدواعي فيوجب الفعل مع الإمكان لا محالة، والدليل على ذلك أن أنسانا لو توافرت دواعيه إلى شرب الماء... وهو مع ذلك ممكن له فلا يجوز ألا يقع منه حتى يموت عطشاً لتوافر الداعي على ما بينا، فإن لم يشرب مع توافر الدواعي له دلَّ ذلك على عجزه عنه. فكذلك توافر الدواعي إلى المعارضة على القرآن لمَّا لم تقع المعارضة دلَّ ذلك على العجز عنها "(١).

يقصد الرُّماني: أنه إذا توافرت الدواعي إلى فعل أمر ما وكان هذا الفعل ماس الحاجة وممكنا وجب بالضرورة وقوع هذا الفعل من صاحب الحاجة، مثال ذلك: لو أن رجلاً توافرت له دواعي شرب الماء كالعطش وتوافر الماء الحسن وكان بإمكانه شرب الماء فالواجب أن يقع منه الشرب، فإن لم يقع وبقي عطشاناً حتى مات فإن ذلك يدل – بالضرورة – على عجزه عن الشرب.

قياساً على ذلك يقال: إن الدواعي لمعارضة القرآن كانت متوفرة، فقد دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى دين جديد لم يألفوه، وسفه أحلامهم، وحرض عليهم غلمانهم، إلى غير ذلك مما نغص عليهم حياتهم وتحداهم على أنهم إن عارضوا القرآن فذلك دليل على بطلان دعوته، ولو فعلوا لانتصروا

---

(١) النكت، ص١٠٩.

لدينهم ومعتقداتهم ولحفظوا أموالهم وأنفسهم؛ ولما اضطروا لرده ببذل كل عزيز عليهم، لكنهم مع ذلك ما عارضوا؛ فدل هذا على عجزهم عن المعارضة.

يقول التفتازاني في شرح المقاصد: إنه صلى الله عليه وسلم تحدى بالقرآن، ودعا إلى الإتيان بسورة مثله مصاقع البلغاء مع كثرتهم وشهرتهم وتهالكهم على المباهاة فعجزوا حتى آثروا المقارعة على المعارضة ولو عارضوا لنقل إلينا لتوافر الدواعي. وعدم الصارف، والعلم بجميع ذلك قطعي(١).

مناقشة القول

على الرغم من أن هذا الكلام صحيح بذاته فإنه لا يعتبر وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، بل هو استدلال على إعجاز القرآن بقياس اقتراني من الشكل الأول، وفرق بين وجه الإعجاز والاستدلال عليه، ويؤكد ذلك كلام الرُّماني، حيث يقول في نهاية كلامه في هذا المبحث: "فكذلك توافر الدواعي إلى المعارضة على القرآن لما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها"، فقوله (دلَّ ذلك) يعني أن ذلك استدلال على كون القرآن معجزاً ثم بعد ذلك يسأل السائل إن كان معجزاً فما وجه إعجازه؟

المبحث الثاني
التحدي للكافة

يقول الرُّماني: "فهو أظهر في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توافر الدواعي إلا للعجز عنها"(٢). والكلام في هذا مكمل للكلام في سابقه فإذا قلنا: إن الدواعي توافرت لمعارضة القرآن، ومع ذلك لم تقع المعارضة فذلك يدلُّ على عجزهم عنها، وهنا نضيف أن الدواعي توافرت للمعارضة، وانضاف إلى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم تحداهم بمعارضة القرآن،

(١) شرح المقاصد، التفتازاني، ص ٢٨٨ بتصرف.
(٢) النكت، ص١١٠.

فكان في هذا التحدي زيادة في دفعهم إلى المعارضة، ومع ذلك لم تقع المعارضة فهذا دليل فيه زيادة في القوة على عجزهم عن المعارضة.

قلت: الكلام على هذا كسابقه؛ إذ هو في حدٍّ ذاته صحيح لكن التحدي ليس وجهاً للإعجاز، بل هو شرط، وعليه يكون هذا ضرباً من الاستدلال على المعجزة[١].

يقول الإيجي صاحب شرح المواقف في الكلام عن القرآن: "وكونه معجزاً أن نقول: تحدى به ولم يُعارض فكان معجزاً"[٢]. وظاهر صيغة كلامه أن هذا نوع من الاستدلال على المعجزة.

المبحث الثالث
نقض العادة

ومعناه أن القرآن جاء بطريقة فريدة خارجة عن العادة المعروفة عندهم، فقد عرفوا الشعر والسجع والخطب وغيرها، وكان للقرآن من الحسن ما تفوق به على كل هذه الطرق[٣].

قلت: وهذا كسابقيه ليس وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز، بل يرجع إلى بلاغة القرآن، فالبلاغة من وجوه الإعجاز، ومن وجوه البلاغة: أنه جاء على قوالب لفظية لم تكن مألوفة لديهم؛ فكان بذلك إبداعاً جديداً جعله الأعلى في مراتب البلاغة.

المبحث الرابع
قياسه بكل معجزة

يقول الرُّماني: "وأما قياسه بكل معجزة فإنه يُظهر إعجازه من هذه الجهة، إذ كان سبيل فلق البحر وقلب العصا، وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلا واحدا في الإعجاز إذا خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة"[٤].

---

(١) شرح المواقف، الايجي، ٢٢٤.
(٢) شرح المواقف، الايجي، ٢٤٣.
(٣) النكت، ص١١١.
(٤) النكت، ص١١١.

قلت: هذا في الحقيقة استدلال على إعجاز القرآن الكريم، بالقياس على المعجزات السابقة، فتلك جاءت بحال ولم تتسن معارضتها فحكم العقل بأنها معجزة، وعليه فكل ما كان حاله كحالها فهو معجز، والقرآن كحالها؛ إذن هو معجز.

المبحث الخامس
الأخبار الصادقة عن المستقبل

يقول الرُّماني: "لما كان لا يجوز أن تقع على الاتفاق دل على أنها من عند علام الغيوب"[(١)]. وضرب على ذلك أمثلة منها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ (الروم:١-٣) ولقد حصل ذلك فيما بعد، ولما كانت هذه الأخبار من عالم الغيب الذي لا يمكن لبشر أن يعرفه دلَّ ذلك على أن هذه الأخبار ليست من عند بشر، بل هي من عند الله علام الغيوب، وذلك يدل على أن القرآن من عند الله

يقول الإيجي في سياق بيانه لوجوه إعجاز القرآن: "وقيل: هو إخباره عن الغيب نحو: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾... وذلك كثير يعرف بتتبع القرآن وإخباراته عن الأمور المستقبلية الكائنة على وفقها"[(٢)]. وعليه فجمهور علماء المسلمين يوافقون الرُّماني في هذا الوجه[(٣)].

المبحث السادس
الصَّرفة

يقول الرُّماني: " الصَّرفة هي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن

---

(١) النكت،ص ١١٠.

(٢) شرح المواقف، الايجي، ص ٢٤٥.

(٣) نقل ذلك الإيجي، في شرح المواقف، ص٢٤٥، والتفتازاني في شرح المقاصد ص ٢٩٥.

المعارضة، وذلك خارج عن العادة لخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول "[1].

وكلام الرُّماني هذا واضح في أنه يقبل القول بالصرفة، وكونها من وجوه إعجاز القرآن الكريم. ولمناقشته في هذا الوجه أتحدث بشكل موجز عن الصرفة وأدلة القائلين بها.

لم يكن الرُّماني وحده من قال بالصَّرفة بل قال معه بها قوم، منهم: النظام من المعتزلة، والمرتضى من الشيعة، الاسفراييني من أهل السنة، وبعض من ذهب إلى القول بالصرفة يقصر الإعجاز عليها، وبعضهم يجعلها وجهاً من وجوه الإعجاز، فالنظام يعتبر الإعجاز في الصرف والإخبار عن الغيب، والرُّماني يعتبرها من الوجوه التي نقلناها عنه. وهؤلاء يقولون إن عجز العرب عن معارضة القرآن كان لواحد من ثلاثة أسباب هي:[2]

١ - أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم.

٢ - أن يكون صارفاً إلهياً زهدهم في المعارضة، فلم تتجه عزائمهم، فقعدوا على رغم توافر الدواعي.

٣ - أنهم لم يمتلكوا تلك العلوم التي يعارضوا بها القرآن.

أما الأول: فلن نطيل في الرد عليه؛ لأن الأدلة كثيرة، والأخبار متواترة في إثبات توافر هذه الدواعي.

أما الثاني: فلا يستبعد أن يكون الرُّماني قد ذهب إليه، ولا نجزم؛ لأنه لم يفصل لنا رأيه في الصرفة، لكنه مردود بالواقع التاريخي الثابت بالتواتر من أن بواعث العرب للمعارضة قد توافرت، وأنهم حاولوا دفع دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، والدفاع عن دينهم بوسائل شتى انتهت إلى التضحية بأموالهم وأنفسهم.

---

(١) النكت، ص١١٠.

(٢) انظر مناهل العرفان، الزرقاني، ص ٤١٤ وما بعدها.

أما الثالث: وهو أنهم لم يمتلكوا تلك العلوم التي يعارضون بها القرآن وهذا يحتمل أمرين:

الأول: أنهم لم يمتلكوها أصلا.

والثاني: أنهم سُلِبُوها عند محاولتهم معارضة القرآن.

وهذا كذلك مرفوض؛ لأن التاريخ يشهد أنهم ملكوا من علوم اللغة والبيان ما جعلهم يتفاخرون ويتناظرون بها، وأما الثاني: فلم يقل أحد بأنه كان للعرب قبل نزول القرآن كلام يرتقي إلى درجة بلاغة القرآن،ولم يقل أحد كذلك: إن قدرة العرب في البيان تراجعت بعد التحدي بالقران، ولو سلمنا بذلك لنقل إلينا أنهم حاولوا معارضة القرآن فوجدوا في أنفسهم عجزاً غير مألوف.

هذه الصرفة وهي مردودة من جهتين:

الأولى: إبطال شبهاتها.

والثانية: إثبات وجوه أخرى لإعجاز القرآن الكريم مما يؤكد أن عجزهم إنما كان بسبب تلك الوجوه، وهذا ما أثبته الرُّماني نفسه حينما عدَّ وجوها ستة لإعجاز القرآن غير الصَّرفة، وكذلك النظام نفسه حيث اعترف بالإعجاز من جهة الإخبار عن الغيب.

أما إبطال شبهاتهم فمن وجوه:(١)

الأول: نُقل لنا أن فصحاء العرب إنما كانوا يتعجبون من حسن نظم القرآن وبلاغته وسلاسته وجزالته. لذلك لا يصح القول: إنهم تركوا المعارضة لصارف، وإنهم نظروا إلى بلاغة القرآن فوجدوها مثلَ ما ألفوا.

الثاني: أنه لو كان الإعجاز بالصرفة لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغة القرآن؛ لأنه كلما كانت بلاغته أقل كان عدم إمكان المعارضة أبلغ في خرق العادة.

---

(١) شرح المقاصد، السعد التفتزاني، ص ٢٩٢.

الثالث: قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ (الإسراء:٨٨) فإن ذكر الاجتماع والاستظهار بالغير في مقام التحدي إنما يحسن فيما لا يكون مقدوراً لبعضهم، ويتوهم كونه مقدوراً للكل، فيقصد نفي ذلك.

الرابع: أن القول بالصرفة يستلزم أن الإعجاز ليس في القرآن ذاته بل في غيره، وهو عدم استطاعتهم، ويترتب على هذا أن القرآن ذاته غير معجز، وهذا أمر باطل.

أما الوجه الثاني في رد القول بالصرفة فهو إثبات وجوه الإعجاز الأخرى، وبالذات الوجه البلاغي، فإذا ثبتت هذا الوجوه – وبالذات البلاغي – فلا حاجة لنا للقول بالصَّرفة.

ومع الرُّماني لن نجد عناء في ذلك؛ لأنه نفسه أثبت وجوها أخرى، بل العجيب أنه أثبت الإعجاز البلاغي واعتبره الوجه الرئيس، ثم راح يثبت الصَّرفة مع أن هذا القول ينقض القول بالصرفة من أساسه، إذ يجب مع القول بالصرفة أن تكون بلاغة القرآن في مقدور الذين تحداهم الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التحدي، فيقال عندها: على الرغم من إمكان التحدي لم يقع، ولعلنا نخلص بعد ذلك إلى القول بالصرفة، أما إن كانت بلاغة القرآن خارقة للعادة فما وجه القول بالصرفة.

المبحث السابع
اعتراضات على الإعجاز وردها

يذكر الرُّماني – هنا – اعتراضات قد تَرِدُ على الإعجاز ويردها، وهي:[(١)]

أولاً: لعل المعارضة في السور القصار ممكنة، ويرد الرُّماني على ذلك بأن التحدي قد وقع بها؛ فدخلت حيز الإعجاز؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي

(١) النكت، ص١١١–١١٣.

رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣) واللفظ يشمل القصار والطوال.

ثانياً: لعل المعارضة في تغيير بعض الفواصل والكلمات في القصار، ويرد الرُّماني بأن تلك ليس معارضة؛ إنما المعارضة إنشاء نص جديد مثل النص المتحدى به.

ثالثاً: لعلهم عدلوا عن معارضة الطوال للعجز، وعدلوا عن معارضة القصار لخفاء المساواة في الحكم. ويرد الرُّماني بأن ذلك لا يجوز أصلاً؛ لأن ذلك لن يمنعهم عن المعارضة، بل سوف تقع منهم كما وقعت المعارضات بينهم في الشعر.

رابعاً: قد: يقال لم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولدين. وهو معجز للجميع مع أنه يوجد للمولدين كلام بليغ كثير؟ ويرد على ذلك بأن العرب كانوا يقيمون الأوزان والإعراب بالطباع وليس كذلك المولدون، وعليه فإنهم أبلغ من المولدين، فإن عجزوا كان عجز المولدين من باب أولى.

والعجيب هنا: أن الرُّماني يورد هذا الاعتراضات وهي ترد على القرآن إذا كان وجه الإعجاز في بلاغته، والرد كذلك لا يصلح في دفع الاعتراض إلا مع التسليم بأن وجه الإعجاز في البلاغة. وذلك في قولهم: لم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولدين. مع أنه يوجد للمولدين كلام بليغ كثير؟ وكان ردُّ الرماني بأن الإعراب أبلغ من المولدين وبلاغتهم سليقة عندهم.

بعد هذه الوجوه التي ذكرها الرماني والاعتراضات التي ردها يأتي على ختام رسالته في الإعجاز، وبدا أنه عالم متمكن، طرح أفكار تأصيلية هامة كانت نواة التأليف في باب البلاغة والإعجاز البلاغي، كما طرح أفكارا جدلية هامة تستحق الوقوف والنقد والأخذ والرد، رحم الله الشيخ، ونفعه بما قدم، وغفر له ولسائر أهل القرآن.

الخاتمة

هذه الوجوه التي ذكرها الرُّماني، وبعد هذه الدراسة يظهر ما يلي:

أولاً: أن الوجه الرئيس الذي اعتمده الرُّماني هو البلاغة، وهذا ظاهر في استطراده في إثباته ومناقشته والتمثيل عليه.

ثانياً: ذكر الرُّماني ثلاثة أوجه هي في الواقع ليست وجوه الإعجاز وإن كان ما يتعلق بها من إعجاز إنما راجع إلى وجه البلاغة وهذه الوجوه هي:

١ - ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة.

٢ - التحدي للكافة.

٣ - نقض العادة.

ثالثاً: ذكر الرُّماني القياس بكل معجزة، وهذا - كما بينت - لا يصلح أن يكون وجها للإعجاز.

رابعاً: بقي من وجوه الإعجاز المعتمدة عند الرُّماني ثلاثة هي:

١ - البلاغة.

٢ - الإخبار الصادق عن المستقبل.

٣ - الصرفة.

وقد ظهر بالمناقشة ردُّ القول بالصرفة، وعليه يبقى عندنا مما اعتمده الرُّماني وجهان فقط.

خامساً: ذكر الرُّماني اعتراضات قد تَرِدُ على الإعجاز وردها، وهذه الاعتراضات: لعل المعارضة في السور القصار ممكنة، أو لعل المعارضة في تغيير بعض الفواصل والكلمات في القصار، أو لعلهم عدلوا عن معارضة الطوال للعجز، وعدلوا عن معارضة القصار لخفاء المساواة في الحكم.

أخيراً لم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولدين. وهو معجز للجميع، مع أنه يوجد للمولدين كلام بليغ كثير؟. وقد رد على هذه الاعتراضات بردود قوية.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٥.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، الأولى، ٢٠٠٠.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥)، معجم مقاييس اللغة، بيروت، دار إحياء التراث، الأولى ٢٠٠١.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب،، دار صادر بيروت.
- الآلوسي، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني (١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥ هـ.
- الإيجي، عبد الرحمن (٧٥٦)، المواقف، مع شرح الجرجاني (٨١٦)، تحقيق محمود عمر الدمياطي، بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى ١٩٩٨
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (٤٠٣)، إعجاز القرآن، تحقيق: عماد الدين حيدر، لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الرابعة.
- التفتازاني، سعد الدين، مسعود بن عمر بن عبد الله (٧٩٣)، شرح المقاصد، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ٢٠٠١.
- التفتازاني، سعد الدين، مسعود بن عمر بن عبد الله (٧٩٣)، مختصر المعاني، دار الفكر، الأولى ١٤١١هـ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار صعب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨،تحقيق فوزي عطوي.

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١)، دلائل الإعجاز، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى، ٢٠٠١.
- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، الأولى ١٩٩٨.
- الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام،
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، (٤٦٣)، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٩٩٧.
- الخفاجي، لابن سنان، سر الفصاحة دارسة وتحليل، عبد الرزاق أبو زيد زايد. مكتبة الشباب.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القران، تحقيق خليل العيتاني، بيروت، دار المعرفة، الثالثة، ٢٠٠١.
- الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القران والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية لبنان الأولى ٢٠٠٠.
- الرُّماني، علي بن عبد الله، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، القاهرة، دار المعارف.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، ١٩٨٨
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي (١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢ م.
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (٤٦٧ – ٥٣٨ هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٠٧ هـ.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي.
- العسكري، أبو الهلال الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٩٥٢ دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباني الحلبي.
- العكري الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد (١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار بن كثير، ١٤٠٦هـ، دمشق.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (٨١٧)، القاموس المحيط، بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤.
- القاضي عبد الجبار، أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي، المغني في أبواب العدل والتوحيد، تحقيق أمين الخولي، مصر، مطبعة دار الكتب، الأولى ١٩٦٠.
- القزويني، محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد خفاجي، عيسى البابي، الثانية، ١٩٥٣.
- مفتاح العلوم، السكاكي، أبو يوسف بن محمد بن علي، (٦٢٦)، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، الأولى ٢٠٠٠.